

المنهجية الشمولية بين الإبداع والإتباع عند محمد مفتاح The comprehensive approach between creativity and following by Mohamed Miftah

بن منصور عبلة^{1*}، جامعة باتنة¹، (الجزائر)، abla.benmansour@univ-batna.dz

مخير الشعرية

شرف شناف²، جامعة باتنة¹، (الجزائر)، charafbatna@yahoo.fr

تاريخ قبول المقال: 19-08-2022

تاريخ إرسال المقال: 09-08-2022

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن سؤال محوري فحواه: ما طبيعة الممارسة المنهجية عند محمد مفتاح؟ ما أبعادها المعرفية؟ وما خصوصيتها الثقافية؟ ونطمح من خلال هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف أهمها: تسليط الضوء على مؤلفات محمد مفتاح لمعرفة خصوصية ممارسته المنهجية وأهم المناهج التي اعتمد على مستوى التنظير والتطبيق، وكذا محاولة معرفة أبعاد هذه المنهجية، وهل هناك إبداع في الجهاز المفاهيمي والاجرائي لهذه المنهجية؟ وأظهرت نتائج هذه الدراسة مدى إهتمام محمد مفتاح بالمنهجية الشمولية للكشف على مختلف الأبعاد خاصة الأبعاد الإنسانية الكونية.

الكلمات المفتاح: منهجية؛ شمولية؛ إبداع؛ إتباع؛ محمد مفتاح.

Abstract:

This purpose of this study is to answer a central question, namely, the nature of Muhammad Meftah systematic practice its cosmological cognitive dimensions and its cultural specificity, we aspire to achieve a set of objectives, the most important tor shed light on the writings of Mohammed meftah to know the specificity of his systematic practice and the most important curricula relied on at the level of theory and application, as well as trying to know the dimensions of this methodology, and is there creativity in the conceptual and procedural apparatus of this methodology?

The results of this study showed the extent to which Mohamed Maftah's is the holistic methodology to reveal the various dimensions, especially the cosmic humanity.

Keywords: Methodology; Inclusiveness; Creativity; Followers; Mohamed Meftah.

* بن منصور عبلة.

مقدمة:

لا يملك المتأمل، في النقد العربي المعاصر، إلا أن يلحظ أن معظم محاولات النقاد العرب المعاصرين مع المناهج النقدية، ارتبطت بفترة الستينات والسبعينات من القرن الماضي، حيث استفاد النقاد العرب من معطيات المنظومة الفكرية الغربية ومن هؤلاء النقاد (عبد السلام المسدي، عبد العزيز حمودة، عبد الفتاح كليطو، سامي سويدات، عبد الله القدامي صلاح فضل، سعيد علوش، سعيد يقطين، كمال أبو ديب و محمد مفتاح)، حيث تأثر هؤلاء بالمناهج النقدية التي ظهرت مع هذه الفترة (كالبنويوية، السيميائية، التفكيكية، التأويلية، الاسلوبية، لسانيات النص)، وغيرها من المناهج التي اهتمت بالنص الأدبي، واتجهت إلى دراسة هذا الأدب ومحاورة مختلف أبعاده الإبداعية وتراكماته الإنسانية والدينية والفلسفية، وكذا كل ما تحمله من رموز وإيماءات كونية، وجاء هذا التأثير متفاوتا، فمنهم من كانت محاولته شاملة، إستثمر من خلالها هذه المناهج، وكل ما تحمله في خلفية إستمولوجيا، ومن مفاهيم وآليات، يمكن من خلالها كشف اللثام عن ما يريد النص أن يقوله، ومنهم من كانت محاولته جزئية، لم تأخذ بعين الإعتبار طبيعة هذه المناهج، فعالجوا ظواهر معينة دون إختبار فاعلية جهازها المفاهيمي والإجرائي، او بالإعتماد على منهج واحد.

وبعد مشروع "محمد مفتاح" النقدي، من المحاولات الأولى في النقد العربي المعاصر، التي حاورت ويكل جراً هذه المناهج، بكل ما لديها من جهاز مفاهيمي بل تجاوز حدود الحقل الأدبي والنقدي، حيث استقدم مختلف المفاهيم والآليات من الحقول المعرفية الأخرى، وهذا ما جعل منها ممارسة شاملة وكونية تتحرك بحرية، دون حواجز او فواصل.

وتعد معظم كتبه في نظر المتخصصين، مساهمة نظرية وتطبيقية، ونموذج للشمولية والتجديد، وتطبيق المناهج، حيث تشد المطلاع على هذه الكتب وتجذبه تلك العلاقة التي تربط "مفتاح" بالمنهج، وبمختلف الحقول المعرفية، وكذا هوية مفاهيمه وآلياته الإجرائية التي يتحرك بها ومن خلالها، خاصة في تعامله مع النصوص العربية القديمة، التي حاول تقديمها بتحليلات تميزها عن باقي النصوص، كما هو الحال في دراسته لعلم البلاغة ومفاهيمها وأعلامها، ونصوصهم وابعائهم التي استمد منها النقد الحديث المعاصر الكثير من مفاهيمه وآلياته. غير ان السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: هل هذا الزخم المنهجي الاستثنائي الذي عرفه العصر المعاصر هو ما أدى "بمفتاح" إلى الدعوة إلى هذه المنهجية الشمولية؟ أم أن خصوصية النصوص هي التي فرضت تبني هذه المنهجية الشمولية؟ وهل هذه المنهجية هي نموذج للتفكير الغربي؟ ام هي شكل من اشكال الخلق والابداع وإعادة النظر في الواقع الفكري العربي؟ وإلى أي مدى راعى الفوارق الفكرية والمعرفية بين الثقافة الغربية والعربية؟

المبحث الأول: هوية ومصادر مفتاح المنهجية:

إذا كان لمشروع "مفتاح" النقدي ما يميزه من سمات وخصوصيات، فإن المنهاجية الشمولية بكل ما تحمله من أفكار ومفاهيم وأليات، كانت الميزة الأهم في مشروعه النقدي، والذي لا يمكن حصره في مجال معين أو تحديد هويته، لأنه ينتمي إلى تيارات علمية مختلفة، لا تتفصل في عمومها عن الثقافة الغربية.

ومحاولة منا لفهم موقف "مفتاح" من هذه المنهاجية كان علينا تتبع مختلف أعماله الفكرية والنقدية لرصد المناهج التي وظفها في مشروعه النقدي، وكذا الكشف عن جهازه المفاهيمي والاجرائي الذي اعتمده في تحليله للنص الأدبي سواء اكان شعرا او نثرا، حيث نجده دائم التساؤل فيما إذا كان هناك "منهاجية تلائم الخطاب الشعري (وغيره) بدون تحديد للزمان والمكان والثقافة القومية؟ اهنالك منهاجية فرعية تتماشى معه في زمان-مكان خاصين ضمن ثقافة قومية معينة... كيف نستطيع إذن أن نبني منهاجية ملائمة شاملة وفروضا تأويلية وجبهة تحرك بعض مسلماتها ومفاهيمها بحسب كيفية النص الذي يواجهنا ونوعية تمظهراته"¹ فهو هنا يدعو إلى منهاجية شاملة ندرس ونحلل من خلالها النص بكل ما يحيط به دون تجاوز لتقافته او للزمان والمكان، ولكل جزئياته اللغوية والتاريخية، ثم إن "السمة المميزة للمؤرخ المحترف من غيره هو منحه أهمية للزمان والمكان واختلاف الأزمنة والأمكنة وعليه، فلا يعقل، في نظر المؤرخ المحترف، مقايسة أي شيء بأي شيء، ومقاربة أية ظاهرة بأية ظاهرة أخرى بغض النظر عن الزمان والمكان والإنسان"²

طبعاً لا تقتصر منهجية محمد مفتاح على الزمان والمكان والإنسان فهي: "ذات امتدادات متعددة، حيث تبنى مقاربة ذات صلة مباشرة بالاتجاه الاجتماعي الذي تطلب بدوره استيعاء التاريخ مع ما يترقب عن ذلك من نتائج ومواقف وأبعاد"³ وما ينتج عن هذه المواقف من نظريات ومعطيات، لم تكن لولا الانفتاح على أزمنة التاريخ ومكاسبه.

وتكشف لنا معظم كتب "مفتاح" عن جهوده المتواصلة ورؤيته الواضحة الموصولة بمكاسب البحث الإبستمولوجي حول مفهوم (المنهاجية الشمولية)، والتي يمكن اعتبارها من هم أدوات التفكير لأنها حسب مفتاح تعتمد "على رؤيا للعالم اشمل، والرؤيا للعالم هذه تؤكد على ان الكون انتظام، وهي قديمة وجديدة في آن واحد، فهي قديمة من إن جذورها تعود إلى التصورات الهندية والفيثاغورية والأفلاطونية والرواقية والأفلوطينية وبعض التيارات الصوفية والفلسفية والفكرية الإسلامية، وهي جديدة من حيث أن كثيرا من تيارات

¹ محمد مفتاح، مشكاة المفاهيم (النقد المعرفي والمثاقفة، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت، ط1، (2000) ص256.

² جمال نبد حمان واخرون (محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، منشورات الاختلاف (الجزائر،) (الدار العربية، ناشرون (بيروت)، ط1، (2009) ص8

³ محمد مفتاح، التشابه والاختلاف (نحو منهاجية شمولية)، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت) ط، (1996)، ص9

المنهجية الشمولية بين الإبداع والإبداع عند محمد مفتاح

الفكر الحديث والمعاصر العلمية والإنسانية والادبية أعادت الحياة الى هذه الرؤيا الشمولية للكون¹، وليؤكد "محمد مفتاح" على هذا المنحى الفكري وتأثيره في الفكر المعاصر يذكر بعض الاتجاهات الحديثة والمعاصرة التي إعتمدت على هذه المنهجية الشمولية فيذكر "النظريات السيميائية والبيولوجية والفيزيائية والفلسفية والنسقية"² حيث أعادت هذه النظريات الاعتبار لها واعتمدت عليها، "لتفسير نظام الكون ورفض اختلاله وعمائه وفوضاه، وإعطاء لكل عنصر مرتبته ودرجته ضمن النسق العام، والكشف عن البنية الرابطة بين مختلف العناصر والمجالات والظواهر، تقوم الرؤية الشمولية على مفهومين قاعديين (الدينامية والانتظام) تتناسل منهما مفاهيم كبرى على نحو التشابه والتناظر والانتظام والانسجام والاتصال والانفصال، تنتظم هذه المفاهيم لتحديد طبيعة العلاقة والترتيب (الترتيب الخطي، والترتيب الشجري، والتفاعل الدينامي والتجاور والاشتراك (التناظر والمقايسة) ووحدة النظام رغم تشعبه وانشطاره، ولضبط الآليات المتحكمة في نسقية الثقافية"³

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذه الرؤية والمنهجية الشمولية التي تبناها "مفتاح" لم تأت من فراغ، بل هي نتيجة لكل ما بلورته مختلف المدارس والتيارات في تاريخ الفكر الإنساني الذي حاول "مفتاح" أن يبرز أهم مظاهره مستوعبا في الآن نفسه كل المعطيات والدروس التي تضمنها مع الإحالة طبعا على مختلف المرجعيات وموقفه منها، وتوظيف ما يراه مناسباً، عن طريق الإنتقائية الواعية بإشكالات النقد العربي.

المبحث الثاني: التيارات المؤسسة للمنهجية الشمولية

لقد مهد "مفتاح" لمنهجية الشمولية في كتابه (تحليل الخطاب الشعري-استراتيجية التناص) فهو يرى "أن النظريات اللسانية، وإن كانت متعددة يمكن ان تصنف إلى مجموعات كبرى أساسية"⁴ هي:

المطلب الأول: التيار التداولي: وما تفرغ عنه، حيث ميز "مفتاح" بين نظريتين، "نظرية الذاتية اللغوية"⁵ والتي أسسها "الفيلسوف" موريس" ثم مارس البحث فيها لسانيون كثيرون فتناولوا ظواهر لغوية عديدة (المعينات، ألفاظ القيمة)⁶

¹ المصدر نفسه، ص9

² محمد الداوي، من التعددية المنهجية إلى نسقية الثقافة (دراسة في المنجز النقدي للباحث د.محمد مفتاح) الحوار المتمدن، تاريخ النشر: 2019/09/06 تاريخ الاطلاع 2021/11/13

m.alhewar.org

³ محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت، (الدار البيضاء) ط1، (1985)، ص7، 8

⁴ المصدر نفسه، ص9

⁵ المصدر نفسه، ص8

⁶ المصدر نفسه، ص8

ونظرية الأفعال الكلامية *théorie des actes de parole* والتي أسسها فلاسفة "أكسفورد" ضدا على الوضعية المنطقية التي كانت لا تقبل من التعابير إلا الأخبار القابلة للتمحيص والتجريب"¹ ويذكر أهم ممثليها: "أوستين"، و"سورل" و"كرايس" كما أورد "مفتاح" العديد من المصطلحات التي تنتمي إلى هذا الحقل العلمي في مواضع كثيرة مثل: مصطلح (المقصدية) *intentionnalité* و (قصد) *intention*، ومتكلم، *locuteur* ومخاطب *allocutaire* وغيرها من المصطلحات التي تفسر الظواهر اللغوية.

المطلب الثاني: التيار السيميوطيقي: وهو من أهم التيارات التي استعان واستند عليها "مفتاح"، والذي يرى فيه "أشمل نظرية لتحليل الخطاب الإنساني"² رغم أنه تحفظ على هذا التعميم، بل إنه يدعو وبعبارة صريحة إلى لزوم التعامل معه "بحذر شديد، ذلك ان خصوصيات كل خطاب تتأبي عليه فلا يستطيع ضبطها وتشخيصها بما فيه الكفاية"³ ومن أجل إبراز هذا وتوضيحه والبرهنة عليه، استعرض "مفتاح" الخطوط الرئيسية لتحليلات هذا التيار الشعري ومواقفه من الخطاب الشعري وهذا من خلال الوقوف على أهم الأعمال الفكرية في الفكر الغربي المعاصر، وتلخيص هذه الاعمال والمتمثلة في كتب هذا التيار مثل كتاب: "محاولات في السيميوطيقية" وكتاب "بلاغة الشعر" لجماعة *m*، وكذا كتاب "سيميوطيقا الشعر"، ومعجم "كريماس" و"كورتيس".

ولا تخرج جل أبحاث "محمد مفتاح" في كتبه عن المنهج السيميائي خاصة المتعلق بالسيميائي الفرنسي "كريماس" *creimas*، ومن المصطلحات السيميائية التي أوردتها "نجد: (التحليل السيميائي) *analyse semiotique* (المربع السيميائي) *carré semiotique*، (البنية السطحية) *steucture de surface* (البنية العميقة) *structur profonde* التشاكل، *istopie*... الخ

المطلب الثالث: التيار الشعري: ويرجع بنا مفتاح إلى بعض النماذج التي اختارها حسب ما قدموه من مساهمات وأبحاث فيذكر لنا "ياكيسون" ويرى "مفتاح" أن اسهامه كان "حاسما في تأسيس النظرية الشعرية الحديثة على أن أبحاثه اتسمت باختزال شديد كانت له نتائج سيئة في كتب بعض أتباعه"⁴ ويتمثل هذا الإختزال حسب مفتاح في المقابلة المتناقضة: الشعر، النثر"⁵ وجعل إلى جانبها ثنائية متضادة"⁶ وقد سار

¹ المصدر نفسه، ص9

² المصدر نفسه، ص9

³ المصدر نفسه، ص9

⁴ المصدر نفسه، ص12، 13

⁵ المصدر نفسه، ص13

⁶ المصدر نفسه، ص13

المنهاجية الشمولية بين الإبداع والإتباع عند محمد مفتاح

عليها "جان كوهين" منطلقا "من مسلمة تقول: أن الشعر يقوم على المجاز وبخاصة الاستعارة"¹ ويذكر "مفتاح" في السياق نفسه كلا من ج "مولينو" وج "طامين" والذي يرى حسب رأيه أنهما هاجما على المدعين بأن الحل السحري لكل مغاليق الخطاب الشعري هو في التحليل اللساني² وقد وقف مفتاح وقفة تحفظ من موقفهما "المتعصب من اللسانيات"³، والذي أثر وبشكل سلبي في بناء كتابهما والذي "إتسم بالإضطرابات والإنتقائية والتلفيقية والتكرار المخل أحيانا"⁴ وفي محاولة تركيبية يقدم "مفتاح" بديلا يراه مناسباً لدراسة وتحليل الخطاب الشعري، حيث تساءل قائلاً: "ما العمل، إذن، ونحن نجد تيارات لسانية أساسية وقفت من أنواع الخطاب الأدبية هذا الموقف الحذر؟ ونحن نصادف اختلافاً كبيراً في دراسة الاستعارة، والتحليل بالمقومات، والنبر وغيرها؟ ونحن متأكدون من أن هذا التبلبل النظري ليس إجرائياً وحسب إنما تحكمه خلفية فلسفية معلنة أو مضمرة"⁵ ويتمثل هذا البديل حسب مفتاح في ضرورة التغلب على "العوائق الإبيستيمولوجية والإجرائية، وأن نتمكن من فرز العناصر النظرية الصالحة لاستثمارها في إطار بناء منسجم إذا تعرفنا على تلك الخلفية"⁶ فاللغة عند تشومسكي وكرايس "محايدة وبريئة وشفافة"، بينما هي عند بارت وأضرابه "مخادعة ومضللة وتظهر عكس ما تخفي" وهي عند الوضعيين والماركسيين تصف الواقع وتعكسه لكنها، في نظر الشالتيين والشعراء، تخلق واقعا جديداً. ويختلف منظور هذه التيارات حول تحقق الخطاب: فالنظرية المقصدية عند سورل، تقول بأن الذات المتكلمة هي العلة الأولى والأخيرة في إصدار الخطاب، على خلاف نظرية التفاعل التي تركز على الهيئة المتلقية ودورها في إيجاد الخطاب وتكوينه، وعلى مستوى آخر، قصر المناطقة والعلماء إمكانات اللغة في الثنائية الضيقة القائمة على مفهوم المقابلة بين الشعر والنثر، وما يربط بالفعل الإبداعي من أشياء ونقائضها، بينما نادى الاحتماليون بثنائية موسعة تمتص الواقع الخارجي والواقع الداخلي لهذا الإبداع الذي اعتبره ميكائيل فاتير مجالا خصبا للتناول السيميائي"⁷

¹ المصدر نفسه، ص13

² المصدر نفسه، ص14

³ المصدر نفسه، ص14

⁴ المصدر نفسه، ص14

⁵ المصدر نفسه، ص14

⁶ الزهرة إبراهيم، اليقظة الثقافية في المشروع النقدي لمحمد مفتاح، بين اقتضاءات المنهج ومقدرات النص، جريدة الوقائع، تاريخ النشر 24

ماي 2018، تاريخ الاطلاع 2021/10/10 alwapaa2019.blogspot.com

⁷ جمال بند حمان وآخرون، محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، ص08

المبحث الثالث: أبعاد المنهجية الشمولية وخصائصها عند مفتاح:

يمكن لمن يتابع أعمال "مفتاح" أن يلحظ أن دراساته قائمة على المزوجة بين الجانب النظري والتطبيقي، وعلى بناء وجهة نظر من خلال اشكالاته الخاصة التي حاول من خلالها الخروج من المناهج السياقية والانطلاق من الشكل إلى المضمون.

أنجز أبحاثه الأولى في مجال النقد الأدبي في العقدين الأخيرين من القرن الماضي، حيث أنجز رسالته الجامعية في موضوع "الخطاب الصوفي"، وأخر السبعينيات والثمانينيات وذلك في ظل تعاظم الإهتمام الكوني بالخطابات الهامشية والمهمشة، وقد سمحت له تلك الدراسة تطوير الآلية المنهجية من خلال الإنفتاح على المقاربات الأنثروبولوجية التي نهبت إلى إمكانية دراسة الخطاب الصوفي باعتباره خطابا فاعلا في المجتمع، وليس مجرد مسلكيات روحية، لذلك فإن مقارنة محمد مفتاح لهذا الخطاب، وهي تبحث في وظائفه المجتمعية، تبنت كما لو كانت دراسة أقرب إلى المنهجيات التداولية إلى شيء آخر¹ وتوالت بعدها أعماله موزعة على مرحلتين هما: (المرحلة الجمالية)، (المرحلة الدينامية)، وقد نشر خلالهما، ما يزيد عن عشرة كتب هي: في سيمياء الشعر القديم "دراسة نظرية وتطبيقية (1982)، دينامية النص "تنظير وإنجاز" (1987)، وتعتبر هذه الكتب اللبنة الأولى لمشروعه النقدي وهي فترة خصصها لدراسة العلوم المعرفية وكذا الاهتمام بالمفاهيم وعلم الموسيقى، وقد نشر خلالها كتاب مجهول البيان (1990)، التلقي والتأويل (1994)، التشابه والاختلاف "نحو منهجية شمولية" (1996)، المفاهيم معالم (1999)، مشكاة المفاهيم (200)، الشعر وتناغم الكون (2002)، رؤيا التماثل (2005)، وحدة الفكر المتعددة "قراءة جديدة في الأصول (2016)، المعنى والدلالة 2018، وتعتبر هذه الكتب محصلة لجهده المتواصل في تحسين الفكر العربي وتطوير أدواته.

ولعل هاجس المنهجية الشمولية هو ما ميز هذه الكتب، حيث يرى ان هناك "من يعتقد أن بين تلك النظريات حدودا فاصلة لا يمكن اجتيازها ، وأن لها قداسة لا تداس حرمتها ، وحصانة لا ينتهك حماها، وشمولية لا تبقى باقية، ولا تذر لقائل ما يقول، إن الامر بخلاف المعتقد المذكور، ذلك إن من يعمل فيها بعض النظر يجد بينها تداخلا كبيرا، وتقاطعات شتى، وصلات وثيقة، وتبين لها تاريخيتها، ونسبتها، وديناميتها، فقد هيمنت مثلا السيميولوجيا الفرنسية، وخصوصا سيميو طيقا "كريماس" في سياق إبستمولوجي وتاريخي، هو سياق علوم العقدين الخامس والسادس، ولكن بعض الباحثين بدأوا يناقشون نظريته، ليلغوا بعض عناصرها، ويكيفوا بعضا منها في ضوء علوم العقدين الأخيرين، وهكذا يجد القارئ

¹ محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت، ط4، (2010)، ص5

المنهجية الشمولية بين الإبداع والإتباع عند محمد مفتاح

مفاهيم فيزيائية وبيولوجية ورياضية ومعلوماتية شرعت تغزو ميدان الدراسات اللسانية والسيمائية، مثل (التشعب النموذجي) (والدينامي، والتحكم الذاتي، والتفرد)، والذاكرة الطويلة والقصيرة¹ خاصة وان "اتجاهات البحث المعاصر تتحو نحو تحطيم الثنائية المانوية الحادة، وصوب فسخ المجال امام تعاليم عدة عناصر"² وقد شكلت هذه القضايا الفكرية الخلفية للإبستمولوجية التي وجهت فكر "محمد مفتاح" ومساغيه الرامية إلى التسلح بمختلف منجزات الثقافة الغربية الفلسفية والنقدية، وتطويعها "تكييفاً ومواءمة ونحتاً، لمقاسات النص العربي، وبحاور قضايا ومفاهيم النقد الغربي بنظائرها أو غيرها، مما ورد في الموروث النقدي العربي ولم يرد في غيره، تحذوه، في كل ذلك، يقظة ثقافية تحررت من تقديس أو تحقير النماذج - كيفما كانت - نصوصاً أو انساقاً- كي يستثمر، بجرأة موضوعية، عدة مفاهيمية من مختلف حقول العلوم البحتة والعلوم الإنسانية ليلبور أدوات القراءة، والتفكيك والتأويل والتشبيد"³

وقد وفق "مفتاح" في بلورة آلية منهجية شاملة موصولة بمختلف الحقول المعرفية ومفتحة على مختلف أزمنته التاريخية، نقلاً وشرحاً، وخلقاً وإبداعاً، كما مكنته من إبراز البعد الكوني لهذه المنهجية التي أغناها وطورها وبنى بها وجهة نظر خاصة به، شحن وكيف من خلالها مجموعة من المفاهيم، خاصة تلك التي تنتمي إلى اتجاهات حديثة، حيث عمل "مفتاح" على إضاءة الطريق النقدي للقارئ العربي من خلال هذه المفاهيم في بعدها النقدي.

فاذا إنتقلنا إلى المناهج التي حظيت بحضور قوي في مشروع "مفتاح" النقدي نجد "المنهج السيميائي والتداولي والشعرية العربية بشقيها والفونولوجية، حيث إعتد على هذه المناهج في كتابه "في سماء الشعر القديم" الذي عمل فيه على دراسة قصيدة أندلسية لابي البقاء الرندي مستثمراً من خلال هذه المناهج أراء المحدثين الذين قوموا الخطاب الشعري. كما نهج القراءة الكلية التي تنظر إلى جميع العناصر والمستويات في تضافرها وتفاعلها"⁴ و حاول "مفتاح" من خلال هذه المناهج قراءة النصوص التراثية معتمداً على أفكار "جاكسون"، و"لوتمان"، "جان كوهين" وتسهيلاً لهذه القراءة لجا "مفتاح" في تحليلاته إلى بعض المفاهيم مثل: المربع السيميائي والمقصد والمفلوجين.

¹ محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص ص15)

² الزهرة إبراهيم، اليقظة الثقافية في المشروع النقد لمحمد مفتاح بين اقتضاءات المنهج ومقدرات النص، جريدة الوقائع

³ محمد الداوي، من التعددية المنهجية إلى نسقية الثقافة m.alhewar.org

⁴ محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبغال (الدار البيضاء)، ط1، (1990)، ص9

المنهاجية الشمولية بين الإبداع والإتباع عند محمد مفتاح

وهذا التركيب المنهجي هو نفسه الذي اعتمده في كتابه (تحليل الخطاب الشعري-استراتيجية التناص)، وكذا (دينامية النص-تنظير وإنجاز) معتمدا على بعض المفاهيم والآليات مثل: التناص، المقصدية، التشاكل، التباين، التفاعل، التوقع... الخ ولقد ركز "مفتاح" على أهم هذه المفاهيم خاصة تلك التي لها علاقة بالخطاب الشعري مثل التشاكل والتباين، والتفاعل، وأورد مختلف التعاريف التي عرفت هذه المفاهيم مثل تعريف التشاكل عند قريماص greimas، وراستي rastier وجماعة m.groupe m. محاولا مناقشة هذه التعاريف، وإن كان ذلك بصورة مختزلة وسريعة.

أما كتابه (مجهول البيان) فقد تبني فيه "التحليل بالموقومات السياقية المستقاة من تفاعل المفاهيم ومساق الخطاب وسياقه ضمن بنية شاملة"¹، تعرض من خلالها لبعض النصوص مثل: المناقب والكرامات، وبعض الشعر المعاصر، وبعض القصص والأمثال القرآنية وغيرها وهي من النصوص الاستعارية التي أراد من خلالها الخروج بتأويل شامل والكشف عن اليات الانسجام والتفاعل" أما (التلقي والتأويل) فهو تعميق وتحليل لكتاب (مجهول البيان) والذي اعتمد فيه على منهاجية ذات رؤية فلسفية "ترفض الانفصال المطلق وتبعد الاتصال المطلق وتأخذ ب (البين بين)، وكانت أدوات المنهاجية النظرية والوصفية هي مبادئ نظرية التناصب بما تعنيه من مقاسة واستعارة ومشابهة، ونظرية الشاهد الأول في صيغتها الأصلية والموسعة، ونظرية التداوليات، ونظرية التلقي والتأويل"² وهي "منهاجية تفاعلية علاقية"³ كما يقول "مفتاح" أي "منهاجية بنيوية كشفت عن نوع الآليات التي تحكمت في بناء كل مكتوب على حدة، ومنهاجية نسقية أثبتت التفاعل والتعالق بين المكتوبات المحللة جميعا"⁴ ويقصد بالتفاعل "وجود تفاعلات بين القصاصد إذ يفسر بعضها بعضا رغم الفضاء الفاصل والعناوين والمتباينة"⁵ أما التعالق فهو تلك "العلائق والصلات التي أوجدها وأنشأها الإنسان حتى يمكن له أن ينتقل من مجال إلى مجال، وأن يوظف المعلوم للكشف عما هو مجهول، وأن يحقق الألفة بينه وبين محيطه"⁶

¹ ينظر محمد الداوي، من التعددية المنهجية إلى نسقية الثقافة، m.alhewar.org

² المصدر نفسه، ص 08

³ المصدر نفسه، ص 8

⁴ ينظر: محمد مفتاح، المفاهيم معالم (نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء) (بيروت، ط2، 2010، ص 144

⁵ ينظر المصدر نفسه، ص 142

⁶ محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، ص 18

المنهاجية الشمولية بين الإبداع والإتباع عند محمد مفتاح

فيما إعتد في كتابه (التشابه والاختلاف) على منهاجية شمولية، قائمة في عموميتها على مفاهيم فلسفية كونية "تطلق من مبدأ وحدة الكون، ومن ثمة فلا شك في وحدة المبادئ التي تحكم مكوناته المختلفة المتجلية للناس، وفي وجود علائق بينها وفي إحتلالها مراتب خاصة بها"¹، و"تحاول أن تنظر إلى الإنسان من حيث هو روح وعقل ومن حيث أنه يعيش في محيط يتأثر به ويؤثر فيه"، وهي النقطة التي وقف عندها "مفتاح" في سياق عن المنهاجية الشمولية، وحاجة الفكر العربي إلى هذه المنهاجية بإعتبارها وسيلة راقية في التعامل مع التراث، وتتجلى هذه المنهاجية في النظرية النسقية، والتي يرى "مفتاح" انها "عبارة عن عناصر متفاعلة فيما بينها ومتفاعلة مع المحيط أيضا، وتفاعل النسق مع المحيط يجعل منه نسقا ديناميا"² قابلا ومتقبلا لمختلف العناصر التي "يتربط بعضها ببعض مع وجود مميز أو مميزات بين عنصر وآخر"³

اما في كتابه (المفاهيم معالم) فقد إعتد على المنهج التأويلي وأسلوب المقاربة والذي يقوم عند مفتاح، بين مجالين ثقافيين وبين النص واللائص متوسلة باللسانيات والسميانيات والدليليات، وبمناهج قديمة وحديثة" لمناقشة التحقيقات وإعادة النظر فيها، بخاصة "التحقيقات الأدبية والثقافية القديمة والحديثة مثل التحقيب القائم على روح العصر أو المتبني للابستيمي او المقترح لأفق الانتظار. وهذه التحقيقات الثلاثة الأخيرة هي التي تتصل بإشكالنا"⁴ يقول "مفتاح"، "غير أنه يعتبر "أن تحقيقي الابستيمي وافق الانتظار غير ملائمين لثقافتنا وآدابنا التي لم تخضع لقطائع وطفرات"⁵ لذلك "فان التحقيب الذي يمكن الإستفادة منه هو التحقيب القائم على روح العصر"⁶ من أجل "إيجاد هوية تبحث في التراكم الداخلي للتحقيب، لذلك يرفض محمد مفتاح القطعية في شكلها الفوقي والتحتي، ويدعو إلى ضرورة إيجاد تواصل أنساقى بين مختلف المنجزات البشرية"⁷

ولقد ركز "مفتاح" في جل دراساته على بعدين أساسيين هما: البعد العلمي المعرفي، والبعد الإنساني الثقافي، معتمدا على تصورات ونظريات ومناهج مستقاة من العلوم المعرفية، بما تحتوي عليه من علم الأعصاب وعلم

¹ المصدر نفسه، ص 213

² المصدر نفسه، ص 213

³ المصدر نفسه، ص 158-159

⁴ المصدر نفسه، ص 122

⁵ المصدر نفسه، ص 122

⁶ المصدر نفسه، ص 122

⁷ اليامين بن تومي، محمد مفتاح، نسق الإقليمية مجلة كلية الآداب، العدد 105، تاريخ النشر، 2013، ص(176-189)، الجزائر

المنهاجية الشمولية بين الإبداع والإتباع عند محمد مفتاح

تحصل المعرفة وتديريها. وعلم النفس واللسانيات وفلسفة الذهن...¹، و"في كيفية تكون الأنساق المعقدة المنتظمة ذاتيا... نسجت هذه المنهاجية من الفيزياء والبيولوجيا (علم الحياة)، والكسمولوجيا (إنتظام الكون)، والرياضيات والمنطق والإقتصاد"²

وبناء على هذا، يمكننا القول أن مشروع "محمد مفتاح" النقدي يقوم أساسا على المنهاجية، الشمولية والتي حاول "مفتاح" من خلالها خلق خصوصية منهجية متميزة فتحت النقد العربي المعاصر على مرجعيات غربية.

ولعل أهم ما يميز هذه التعددية المنهجية، استيعابها لمختلف النظريات والآليات والمفاهيم النقدية والعلمية بخاصة الحديثة منها مثل: نظريات الذكاء الاصطناعي، والهندسة وعلم النفس والرياضيات والفيزياء وغيرها، أما من العلوم القديمة فنلاحظ الإهتمام الكبير الذي أولاه لعلم المنطق وكذا البلاغة العربية.

ويعتبر هذا الإنفتاح على هذه العلوم المعرفية المختلفة نقطة تحول في الفكر النقدي العربي وفي منظومته المعرفية. خاصة أنها تهدف كما يقول مفتاح إلى "الكشف عن الابعاد الأيديولوجية والعلمية... وأهم تلك الأبعاد هو التوليف بين أطراف كانت متضادة مثل الجسم والروح والعقل والقلب والطبيعي والإنساني، وهو نشر قيم التسامح في غير تخل والاختلاف من غير تشردم وعصبية. والحرية في إطار المسؤولية"³

هذا وتجدر الإشارة إلى أن مشروع "مفتاح" يمثل النموذج العربي الذي حاول أن يبحث في كونية المناهج، وعن وجود صلات بين كل النظريات. وإن بدت متباعدة كما يؤكد على إنسانيتها وكونيتها. ويرى أن هذه المنهاجية الشمولية أصبحت أهم ميزة في البحث العلمي المعاصر والذي أصبح ينظر " إلى أي شيء مهما كان باعتباره كلا قابلا للتدرج او جزءا ينتمي إلى كل"⁴ كما أن تغير المنظومة المعرفية خاصة النقدية واتساع رقعتها سواء في الاستعمال اللغوي أو في إنتاج المصطلحات والمفاهيم هي ما دفع به إلى تبني هذه المنهاجية وهذا الإنفتاح والدعوة إليها ، فهو يرى أن "الباحث العربي المعاصر مطالب بأن يعيد قراءة تراثه مقتديا بتجارب الأمم الراقية في تعاملها مع تراثها. حتى يعيش في وئام مع كينونته ووجوده وصيرورته"⁵

¹ محمد مفتاح، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية (اللغة-الموسيقى-الحركة، ج1، مبادئ مسارات المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2010، ص14

² محمد مفتاح، وحدة الفكر المتعددة، قراءة جديدة في الأصول، دار ابي رقرق (الرباط)، ط1، 2016، ص52

³ محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، ص6

⁴ المصدر نفسه، ص10

⁵ المصدر نفسه، ص115

المنهجية الشمولية بين الإبداع والإبداع عند محمد مفتاح

لذلك فهو يعمل على "توجيه القارئ العربي، ويخاطبه باعتباره موئل توجهه الثقافي الذي يسعى من خلاله إلى تطوير الثقافة العربية ورؤيته إلى مختلف أبعادها بهدف الدفع بالتفكير في العقلية العربية إلى ممارسة التأويل الواقعي للظواهر والقضايا"¹ من أجل الربط بين مختلف المناهج والنظريات والمفاهيم وبين مختلف الثقافات، وعبر التواصل اللغوي، الذي يرى "مفتاح" أنه "لا يتحقق بين الناس إلا بالمفاهيم، إذ هي جوهر اللغة الطبيعية العادية ولب اللغة العلمية الإصطناعية، المفاهيم هي ما يجعل الانسان يفرق بين شيء وشيء، وكائن وكائن وكيان وكيان... لكن المفاهيم محتاجة إلى نسق يضم بعضها إلى بعض لربط صلات وعلائق بين أثار الكون حتى يتحقق نوع من الإنسجام والإتساق بين الأثار بعضه ببعض وبينه وبين الإنسان. مفاهيم المرحلة الطبيعية هي وليدة الإدراك العمومي الذي لا يهتم كثيرا بالتدقيقات والتفاصيل ورسم الحدود، ومفاهيم المرحلة الاصطناعية هي نتيجة التدقيق والتحديد وهي مجال الباحثين من العلماء على إختلاف تخصصاتهم"² خاصة عندما يتعلق الأمر بخصوصية النص التاريخية، وانتماءاتها ذلك انه "مهما تعددت النصوص وتفرغت مجالات اختصاصها، واختلفت أشكالها وأغراضها ووظائفها إلا أنها تبقى ملتقة حول ناظم واحد وهو الإنسان بيولوجيا واثربولوجيا"³، ولقد كان للنصوص الشعرية العربية القديمة والحديثة الحيز الأكبر من الدراسة والمساءلة في مؤلفات "مفتاح"، حيث عمل على تحقيق نوع من المنهجية المركبة والتوفيقية لدراسة هذه النصوص، واخضعها لمختلف النظريات مستعينا بالدراسات الغربية واتجاهاتها وتجاربها، ومواقف أصحابها موظفا مختلف المفاهيم والآليات. حيث تمثل هذه المفاهيم عند "مفتاح" "معالم واضحة في خارطته النقدية ومقومات رئيسية في حوار مع النص العربي، وبهذا يراوح قراءاته بين قطبي الذاتية والمجتمعية، ليحافظ على وشائج النص المختلفة، فلا يبتتر، ولا يميل إلى بعضها الاخر كل الميل فيدير النص كالمعلقة"⁴

وهكذا، وفي ظل هذا الإهتمام بالمنهج وبجهازها المفاهيم والإجرائي، وبخلفياتها الإبتمولوجيا، تحول النقد العربي إلى نقد كوني شامل، يستند إلى العقلانية العلمية المعاصرة بمختلف اتجاهاتها، وفي هذا التحول يكمن جوهر الفكر المعاصر الذي يحاول ترسيخ فكرة الشمولية، والإنحياز إلى كل ما هو إنساني وكوني.

¹ سعيد يقطين، الفكر الادبي العربي (البنيات والانساق)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، دار الأمان (الرباط، منشورات الضفاف (بيروت، الرياض، ط1، 2014، ص312

² محمد مفتاح، المفاهيم معالم، ص6

³ شراف شناف، العقل النقدي الادبي العربي المعاصر وخطاب الانساق، دراسة حفرية تأويلية في التشكيلات الخطابية، أطروحة دكتوراه، اشراف: عبد الله العشي، جامعة الحاج لخضرن بانتنة، (2012، 2013) ص254

⁴ الزهرة إبراهيم، اليقظة الثقافية في المشروع النقدي لمحمد مفتاح alwaqaa.2019.glogaspot.com

خاتمة:

نستطيع أن نقول أن معظم كتب "محمد مفتاح" هي بمثابة دعوة ملحة على ضرورة الانتقال إلى المنهاجية الشمولية، بكل ما تحمله من معطيات نظرية، لأنها في نظره تمتلك القدرة على إبراز مظاهر الإتصال والإنفصال بين الفكر المعاصر والتراث، كما تفتح مجالات التفاعل والمقاربة، والتي تعتبر أهم مبادئ المناهج النقدية، كما أنها محصلة لفكر "مفتاح" وجهده في تحسين الوعي العربي وأدوات تفكيره.

وبعد إضاءة بعض جوانب هذه الممارسة المنهاجية يتبين لنا:

- أن كتب محمد مفتاح نموذج للشمولية والتجدد
- أن مفتاح قدم تحليلاته بالاعتماد على مكاسب البحث الأبتمولوجي
- أن معظم الاتجاهات والنظريات المعاصرة اعتمدت على المنهاجية الشمولية
- أن مفتاح استثمر عدة مفاهيمية من مختلف العلوم.
- أن مفتاح إعتد على تركيب منهجي قائم في عمومه على مفاهيم فلسفية كونية تنطلق من مبدأ وحدة الكون.
- أن مفتاح ركز على بعدين أساسيين هما البعد المعرفي والبعد الإنساني.
- أن أهم هدف للمنهاجية الشمولية هو الكشف عن الابعاد الأيديولوجية والعلمية.
- ويمكننا القول أن "مفتاح" استعان بالمنهاجية الشمولية، بالاستناد إلى دروس غربية خاصة من تاريخ المنطق والرياضيات والفيزياء، وهذا ما خلق إشكالات في المجال النقدي، لذا وجب على الدارسين الالتفات إلى هذه الإشكالات والوقوف على بعض مظاهرها.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر

محمد مفتاح:

1. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، بيروت، (الدار البيضاء) ط1، (1985).
2. محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت، ط4، (2010).
3. محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبغال (الدار البيضاء)، ط1، (1990).
4. محمد مفتاح، التلقي والتأويل (مقاربة نسقية) المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت، ط3، 2009
5. محمد مفتاح، التشابه والاختلاف (نحو منهاجية شمولية)، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت) ط، (1996).

المنهجية الشمولية بين الإبداع والإتباع عند محمد مفتاح

6. محمد مفتاح، المفاهيم معالم (نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء) (بيروت، ط2، 2010).
7. محمد مفتاح، مشكاة المفاهيم (النقد المعرفي والمثاقفة، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت، ط1، (2000).
8. محمد مفتاح، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية (اللغة-الموسيقى-الحركة، ج1، مبادئ مسارات المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2010).
9. محمد مفتاح، وحدة الفكر المتعددة، قراءة جديدة في الأصول، دار ابي رقرق (الرباط)، ط1، 2016

ثانيا: المراجع

الكتب:

10. جمال بند حمان وآخرون (محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، منشورات الإختلاف (الجزائر)، الدار العربية، ناشرون (بيروت)، ط1، (2009).
11. سعيد يقطين، الفكر الأدبي العربي (البنيات والأنساق)، منشورات إختلاف (الجزائر)، دار الأمان (الرباط)، منشورات الضفاف (بيروت)، الرياض، ط1، 2014

أطروحات الدكتوراه:

12. شراف شناف، العقل النقدي الأدبي العربي المعاصر وخطاب الأنساق، دراسة حفرية تأويلية في التشكيلات الخطابية، أطروحة دكتوراه، إشراف: عبد الله العشي، جامعة الحاج لخضر باتنة، (2012، 2013) ص254

المجلات:

13. اليامين بن تومي، محمد مفتاح، نسق الإقليمية مجلة كلية الآداب، العدد 105، تاريخ النشر، 2013، الجزائر.

المواقع الإلكترونية:

14. الزهرة إبراهيم، اليقظة الثقافية في المشروع النقدي لمحمد مفتاح، بين إقتضاءات المنهج ومقدرات النص، جريدة الوقائع، تاريخ النشر 24 ماي 2018، تاريخ الاطلاع 2021/10/10 alwapaa2019.blogspot.com
- محمد الداوي، من التعددية المنهجية إلى نسقية الثقافة (دراسة في المنجز النقدي للباحث د.محمد مفتاح) الحوار المتمدن، تاريخ النشر: 2019/09/06 تاريخ الاطلاع 2021/11/13 m.alhewar.org.